مجلة المعيار ISSN :1112-4377

مجلد:25 عدد:62 السنة: 2021

الاتجاه العلمي بين التفسير والإعجاز

مقاربة ضابطة للفروق والمقاصد

Scientific trend between interpretation and impotence

Controlled approach for differences and purposes

د. عبد الغاني عيساوي [1]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة

abdelghaniomar@yahoo.com

تاريخ الوصول 2021/10/24 القبول 2021/11/29 النشر على الخط 2021/12/15

Received 24/10/2021 Accepted 29/11/2021 Published online 15/12/2021

ملخص:

في المقال دراسة للاتجاه العلمي في التفسير، كأحد أبرز الاتجاهات الموجودة على الساحة العلمية والدراسات القرآنية المعاصرة، وتفريق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي من حيث التعريف ورسم للحدود الفارقة بينهما، وبيان أن المفسِّر قد يستخدم أحد اللونين في تفسيره للقرآن الكريم، كما له أن يجمع بينهما، وأن كل إعجاز علمي مستمدٌّ متعرَّفٌ عليه من خلال التفسير العلمي، وأن كل تفسير علمي ليس بالضرورة هو إعجاز علمي. ثم هو بيان لأن الإعجاز العلمي القصد منه والغاية هو الاحتجاج بمخرجاته ونتائجه على غير المسلمين، تدليلا على صدق القرآن ونبوة النبي العدنان، وأن استخدام مكتشفات العلم التجريبي في بيان معاني الآيات القرآنية هو التفسير العلمي، وأن استخدام هذا التفسير العلمي في إثبات صدق النبوة وكون القرآن كلام الله تعالى، لذكره ما لا يمكن للبشر أن يعرفوه في ذلك الوقت هو الإعجاز العلمي، فخرج التفسير العلمي مخرج الوسيلة لغاية هي الإعجاز العلمي. مع تأكيد على أن الحاصل في هذا الاتجاه المعاصر، إخضاع عبارات القرآن الكريم للعلم فيُنتج تفسيرا علميا، وأن إخضاع نتائج العلم للقرآن الكريم يُنتج إعجازا علميا. كل ذلك بمنهجية استقرائية تحليلية نقدية.

كلمات مفتاحية: الاتجاه التفسيري، الإعجاز، التفسير العلمي، فروق.

Abstract

In the article, we dealt with a study of the scientific trend in interpretation, as one of the most prominent trends in the scientific arena and contemporary Koranic studies, a distinction between scientific interpretation and scientific inertia in terms of definition and a mapping of the boundaries between them, a statement that an interpreter may use one of the two types in its interpretation of the Holy Koran, as well as a combination of them, and that every scientific miracle derived from scientific interpretation is not necessarily any scientific interpretation. Then it's a statement because scientific prodigy is intended and the purpose is to invoke its output and its consequences on Non-Muslims, in evidence of the truthfulness of the Quran and the prophecy of the Prophet al-Adnan, and that the use of the discoveries of empirical science in explaining the meanings of the Koranic verses is the scientific interpretation, and that the use of this scientific interpretation in proving the sincerity of the prophecy and that the Quran is the word of Allah Almighty, to mention what humans could not know at that time. It is the scientific miracle, so the scientific explanation is the way out for the purpose of the scientific miracle. With an emphasis on the fact that in this contemporary trend, subjecting the expressions of the Holy Quran to science results in a scientific interpretation, and that subjecting the results of science to the Holy Quran produces a scientific miracle. All this with an inductive, analytical and critical methodology.

Key words: Interpretation, prodigy, scientific interpretation, differences.

[1]- المؤلف المراسل: عبد الغني عيساوي البريد الإلكتروني: **abdelghaniomar@yahoo.com**

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

مـقـدمة:

عرفت الساحة التفسيرية منذ القدم محاولات معدودة ومحدودة في بيان العلاقة بين الآي الكريم والعلوم البشرية التي استحدثها وقام بها الإنسان، وظهر اختلاف كبير بين أهل التفسير أنفسهم، بين مجيز لجعل القرآن الكريم مضمارا حيا ناطقا بالعلوم التي يجدها الإنسان ويمارسها، وبين محرِّم يرى أن الآيات القرآنية ليس هذا مهامها، وليس من وظائف المفسِّر التدليل على العلوم والابتكارات التي تجدها البشرية.

بالرغم من الصولات والجولات في حكم التفسير العلمي، والتي امتدت طويلا، وأشعلت حروبا فقهية كبيرة "فقد بدأ التفسير العلمي حديثا خافتا يتلمس دعائم شرعيته من هنا ومن هناك، حتى وجد المناخ الطبيعي للإعلان عن هويته، ولا نبالغ في الزعم بأن هذا المناخ لم يكن شيئا آخر سوى ما قرره المفسِّرون الهدائيون من أن القرآن لا يمكن أن يحتوي على تعليم يتعارض مع حقائق العلم...وما زال أنصار التفسير العلمي يزدادون بزيادة تلاقي العلم الحديث مع ما أشار إليه القرآن الكريم جملة أو تفصيلا من الحقائق العلمية المقررة التي لا تقبل الجدل، وتدل على إعجازه السماوي، وينمو اتجاه التفسير العلمي كلما حقَّق العلم جديدا فأثبت ما أشار إليه القرآن منذ مئات السنين".[1]

حاولت الدراسة الجواب على استشكالات متعددة، من أبرزها: هل ينبغي أن تُفسَّر آيات القرآن تفسيرا علميا حسب ما توصل إليه الإنسان من نتائج؟ وهل العلوم المبسوطة والموجودة على الساحة يمكننا استمداد واستنباط إشارات القرآن الكريم لها ولنتائجها، فتثمر في ساحاتنا إعجازا علميا قرآنيا؟ وهل الحاصل في هذا الاتجاه: إخضاع عبارات القرآن للعلم فيصبح تفسيريا علميا، أم إخضاع نتائج العلم للقرآن الكريم فيصبح إعجازا علميا، أم العكس؟

أمام الازدهار الحاصل في أوروبا وظهور الاختراعات العلمية، وتطور علوم الطب والفلك والأرض والكيمياء وغيرها، مع ما كان يقابله من ركود في الكفة الأخرى من العالم الإسلامي والعربي، لجأ ثلة من المفسِّرين إلى القرآن الكريم يلتمسون فيه فهما للتطور الحاصل عند الغرب، وبيانا للمسائل العلمية واستنطاقا لها من النص القرآني المقدس، بغية التنويه والتنبيه لأمرين اثنين:

الأول: أن كل التطور الحاصل في الجهة الغربية وكذا الاختراعات والابتكارات التي عرفتها ساحاتهم المعرفية والعلمية، موجودة مذكورة في القرآن الكريم، وأنه سبّاق لها في الذكر والإشارة بل والتعريف، وأن بعضها كان حتى قبل نزول القرآن، لأن مصدرها الكتاب المنظور الذي هو الكون، وأفعال الله تعالى فيه.

وقد عقد أبو حامد الغزالي (ت:505هـ) فصلا كاملا بعنوان: **في انشعاب سائر العلوم من القرآن**، في كتابه: "جواهر القرآن"، يثبت فيه أن غالب العلوم لها إشاراتها في القرآن الكريم، وإن لم تكن منبثقة منه، وأن جميعها ترجع إلى أفعال الله تعالى في كونه، إذ يقول:"

الفصل الخامس: في انشعاب سائر العلوم من القرآن:

ولعلك تقول: إن العلوم وراء هذه كثيرة، كعلم الطب والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه، وعلم السحر والطلسمات، وغير ذلك.

1: اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم، محمد إبراهيم شريف، دار السلام، القاهرة، ط:01، ت: 2008م، ص: 461.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فاعلم: أنّا إنما أشرنا إلى العلوم الدينية التي لا بد من وجود أصلها في العالم، حتى يتيسر سلوكُ طريق الله تعالى والسفر إليه. أما هذه العلوم التي أشرت إليها فهي علوم، ولكن لا يتوقف على معرفتها صلاح المعاش والمعاد، فلذلك لم نذكرها، ووراء ما عددته علوم أخر يُعلم تراجمها ولا يخلو العالَم عمن يعرفها، ولا حاجة إلى ذكرها".[1]

ثم يبين أن جُلَّ العلوم مُغْتَرَفَة من بحر معرفة الله تعالى قبل نزول القرآن الكريم أصالة، إذ يقول:" هذه العلوم ما عددناها وما لم نَعُدَّها ليست أوائلها خارجة عن القرآن، **فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى**، وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له...".[2]

وذهب يضرب الأمثلة لذلك بالقول:" فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال مثلا الشفاء والمرض، كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من **عرف الطب بكماله**، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه. ومن أفعاله تبارك وتعالى تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال الله تعالى: ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾، وقال: ﴿ وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾، وقال: ﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ وقال: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ وقال ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ ، ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان، وخسوفهما وولوج الليل في النهار، وكيفية تكور أحدهما على الآخر، إلا من عرف **هيئات تركيب السماوات والأرض**، وهو علم برأسه.

ولا يُعرف كمال معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ إلا من عرف **تشريح الأعضاء من الإنسان** ظاهرا وباطنا، وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها، وقد أشار في القرآن في مواضع إليها، وهي من علوم الأولين والآخرين، وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين".[3]

الثاني –من لجوء المفسّرين لاستنطاق القرآن الكريم-: دعوة المسلمين لتبني هذا المسلك والاتجاه العلمي، الذي تؤيده الآيات القرآنية، وتشير على مضامينه عامة أو خاصة، وأن العلاج للركود الحاصل عند المسلمين لا بد أن ينطلق من القرآن ذاته، الذي كان سبّاقا للإشارة للتطور الحاصل عند الآخر، وهي المسألة التي أثارها ودندن حولها جمال الدين الأفغاني وتليمذه محمد عبده –رحمهما الله– في الاتجاه الاجتماعي الإصلاحي، وأن العلوم كلها إن طُلِبت من القرآن الكريم سنجدها ونجد ما يؤسّس لها أو يعرّفنا بها، يقول جلال الدين السيوطي (ت:911هـ):" ما من شيء إلا يمكن استخراجه من القرآن لمن فَهَّمَهُ الله، حتى إن بعضهم استنبط عُمْرَ النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين سنة من قوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ ﴾ فإنها رأس ثلاثٍ وستين سورة وعَقَّبَهَا بالتغابن لِيَظْهَرَ التغابُنُ في فَقْدِه".[4]

1: جواهر القرآن، محمد بن محمد، أبو حامد الغزالي، تح: محمد رشيد رضا، دار إحياء العلوم، بيروت، ط:02، ت:1986م، ص: 44-45.
2: المرجع نفسه، ص: 45.
3: المرجع نفسه، 46.
4: الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ط:01، ت: 1974م، ج:04، ص:30.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولا: تعريف الاتجاه العلمي في التفسير:

لم أجد من تعريفٍ للاتجاه العلمي في التفسير، أو التفسير العلمي للقرآن الكريم، قبل خمسينات القرن العشرين، حتى أورد الدكتور أمين الخولي (ت: 1966م) تعريفا دقيقا له في كتابه "التفسير معا لم حياته، منهجه اليوم"، يمكن الجزم أن كل من أتى بعده تأثر به، وأخذ بكله أو ببعضه، إذ يقول:" هو التفسير الذي يُحَكِّمُ الاصطلاحات العلمية في عبارة القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها".[1]

كما عرَّفه الدكتور عبد المجيد المحتسب بالقول:" هو التفسير الذي يتوخى أصحابه إخضاع عبارات القرآن للنظريات والاصطلاحات العلمية، وبذل أقصى الجهد في استخراج مختلف مسائل العلوم والآراء الفلسفية منها".[2]

وعرَّفه الخالدي بالقول:" تفسير الآيات تفسيرًا علميًّا وفق قواعد العلم الحديث وبيان المضامين العلمية للآيات وفق مقررات وتحليلات العلم الحديث".[3] وتعريف الدكتور فهد الرومي له بالقول:" المراد بالتفسير العلمي هو اجتهاد المفسِّر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي، على وجه يُظهر به إعجاز القرآن، يدل على مصدره، وصلاحيته لكل زمان ومكان".[4]

وجدير بنا في هذا المقام أن نورد تعريف الشيخ الدكتور عبد المجيد الزنداني، خاصة أنه المهتم بقضايا الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وقد عرَّف التفسير العلمي بالقول:" الكشف عن معاني الآية أو الحديث، في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية".[5]

قلتُ: وأرجَحُ وأضبطُ التعاريف عندي، هو تعريف الدكتور فهد الرومي، الذي اتسم بالدقة والضبط والشمولية، فإيراده للعلم التجريبي، إخراجٌ لباقي العلوم التي لا تبنى على الفرضيات والتجارب، ومنه بيانٌ لسلطان القرآن العظيم في تقييم مخرجاته، وإخضاعُ العلم لعبارات القرآن الكريم، كون العلم التجريبي خادمًا للنص القرآني وليس حاكمًا عليه، فالحقائق العلمية الثابتة لا تتعارض والنص القرآني المقدَّس.

ثم جعلُه من هذا الاتجاه غاية للوصول إلى مقصد الإعجاز في القرآن الكريم، وهو بهذا يفرِّق بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي، وفي تعريفه تدليل على غاية هذا الاتجاه وأنه يسوق إلى مصدره الإلهي الخالص، وضابط الصلاحية لكل زمان ومكان، إشارة إلى قدرة النص القرآني على مواكبة أي ناتج علمي معرفي حادث، وأنه يصلح للاحتجاج به فيها جميعا.

فتعريف الاتجاه العلمي في التفسير هو:" اجتهاد المفسِّر في كشف الصلة بين آيات القرآن الكريم الكونية ومكتشفات العلم التجريبي، على وجه يُظهر به إعجاز القرآن، يدل على مصدره، وصلاحيته لكل زمان ومكان".[1]

1: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد بن عبد الرحمن الرومي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:03، ت:1997م. ج:02 ص:547.

2: اتجاهات التفسير في العصر الراهن، عبد المجيد عبد السلام المحتسب، منشورات مكتبة النهضة الإسلامية، الأردن، ط:03، ت:1982م، ص:247.

3: تعريف الدارسين بمناهج المفسِّرين، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط:03، ت: 2008م، ص:566. بتصرف.

4: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد بن عبد الرحمن الرومي، ج:02 ص:549.

5: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عبد المجيد الزنداني، المكتبة العصرية، بيروت، دط، دت، ص: 24.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانيا: في ضرورة التفريق بين الإعجاز العلمي والتفسير العلمي:

الإعجاز وبيان عدم قدرة الإنسان على الإتيان بمثل القرآن الكريم، أمر قديم نزل التحدي به من لدن النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم الناس هذا، وكثيرة هي الآيات التي وقفت موقف المتحدي، والمدلل على عجز البشر أمام سلطان القرآن الكريم، في تصوير لعجز الإنسان وقداسة القرآن، وأنه من لدن حكيم خبير.

وفي تلك المرحلة المتقدمة كان الإعجاز مقتصرا على الشق البياني والنظمي مع عرب أقحاح أفذاذ، إذ تحداهم أن يأتوا بمثله أو ببعضه أو بآية منه، وما أتى من وجوه أخر معزِّزة للإعجاز فإنها مؤكدة لصدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم لإلهية القرآن الكريم.

وقع التدرج في الإعجاز، حتى وصل العصر الحديث، الذي تعدَّدت فيه وجوهه، وظهرت له معطيات جديدة أثارت نقاشات وسعت مفهومه وعمَّقت من دلالاته، أكان ذلك داخل النص القرآني ذاته، أو من خارجه تصديقا لما آتى به وقد وقع اليوم وصار حقيقة علمية لا مفر منها.

بل يرى المفكر مالك بن نبي (ت:1973م) أن الإعجاز العلمي للقرآن هو الوجه الوحيد المتبقي اليوم والصالح لمخاطبة عقل الإنسان المعاصر.

فمع التطور الحاصل في شتى ميادين الفنون والعلوم، زادت وجوه الإعجاز فيها، إذ"يراه الأديب معجزا، ويراه اللغوي معجزا، ويراه أرباب القانون والتشريع معجزا، ويراه علماء الاقتصاد معجزا، ويراه المربون معجزا، ويراه علماء النفس والمعنيون بالدراسات النفسية معجزا، ويراه علماء الاجتماع معجزا، ويراه المصلحون معجزا، ويراه كل راسخ في علمه معجزا".[2]

وقد عرَّف الشيخ الدكتور عبد المجيد الزنداني الإعجاز العلمي بالقول:" إخبار القرآن الكريم أو السنَّة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيرا، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم".[3]

كما عرَّفه الإمام الزُّرقاني (ت:1948م) في "مناهل العرفان" بقوله:" إعجاز القرآن مركب إضافي، معناه بحسب أصل اللغة إثبات القرآن عجزَ الخلقِ عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به والتقدير: إعجاز القرآن خلقَ الله عن الإتيان بما تحداهم به، ولكن التعجيز المذكور ليس مقصودا لذاته بل المقصود لازمه وهو إظهار أن هذا الكتاب حق وأن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي جاء به رسول صدق".[4]

1: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد بن عبد الرحمن الرومي، ج:02 ص:549.

2: محاضرات في علوم القرآن، غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان، ط:01، ت: 2003م، ص: 252.

3: تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عبد المجيد الزنداني، ص:24.

4: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابى الحلبي وشركائه، القاهرة، ط:03، دت، ج:02، ص: 331.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد جمع الباحث عبد المجيد الوعلان مجموعة من التعاريف للإعجاز العلمي، ورجَّح أن يكون التعريف الدقيق له هو:" تأكيد الكشوف العلمية الحديثة الثابتة والمستقرة للحقائق الواردة في القرآن الكريم والسنَّة المطهرة بأدلة تفيد القطع واليقين باتفاق المتخصصين، وثبتَ عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ".[1]

قلتُ: من خلال التعاريف السابقة يظهر جليا أن كل إعجاز علمي مستمدٌّ متعرَّفٌ عليه من خلال التفسير العلمي، وأن كل تفسير علمي ليس بالضرورة هو إعجاز علمي. وظاهرٌ أن الإعجاز العلمي القصد منه والغاية هو البيان والاحتجاج بمخرجاته ونتائجه على غير المسلمين، تدليلا على صدق القرآن ونبوة النبي العدنان، وإبطالا للهجمات الشرسة على الإسلام.

يقول الدكتور محمد راتب النابلسي: "والفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي هو أن التفسير العلمي كشف عن معاني الآية أو الحديث، في ضوء ما ترجحت صحته من حقائق العلوم الكونية، أما الإعجاز العلمي فهو إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي أخيرا، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام".[2]

يقول الدكتور عادل الشدِّي:" إن تعريف الإعجاز العلمي بـ:"إظهار صدق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بما حمله الوحي إليه من علم إلهي ثبت تحققه ويعجز البشر عن نسبته إلى محمد صلى الله عليه وسلم أو إلى أي مصدر بشري في عصره" يدل على وجود فرق بينه وبين التفسير العلمي ويظهر هذا الفرق إذا ركزنا على أمرين:

أحدهما: أن استخدام مكتشفات العلم التجريبي في بيان معاني الآيات القرآنية هو التفسير العلمي، وأن استخدام هذا التفسير العلمي في إثبات صدق النبوة وكون القرآن كلام الله لذكره ما لا يمكن للبشر أن يعرفوه في ذلك الوقت هو الإعجاز العلمي. فكأن التفسير العلمي وسيلة لغاية: هي الإعجاز العلمي.

والثاني: أن القرآن حجة الله على الإنس والجن أجمعين، وجزء كبير من الثقلين من غير المسلمين، وغير المسلم لا يقتنع بصدق النبوة بمجرد ورود بعض الإشارات العلمية في الآيات القرآنية التي يجتهد المفسرون في استخدامها لإيضاح المعنى وهو ما يُسمَّى التفسير العلمي.إنما يُحتج عليه بما يثبت قطعًا استحالة معرفة البشر له وقت نزول القرآن، ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يكشف الله للناس بعد ذلك من حقائق العلم التجريبي ما يكون مذكورًا في القرآن فهذا هو الإعجاز العلمي".[3]

وتجدر الإشار هنا إلى ملاحظتين هامتين:

أولا: حُصر موضوع الإعجاز القرآني عند القدماء في الإعجاز البلاغي البياني، كما حُصر في التدليل على عجز الإتيان بمثله كاملا أو بعضه أو حتى بآية منه من حيث بلاغته وفصاحته، وأنه نازل بين ظهراني أهل اللغة والفصاحة، لذا نجد كل من كتب في هذا الباب في تلك المرحلة المبكرة، كان يدندن حول هاته المسألة ولم يتطرق للإعجاز العلمي الذي نحن بصدده، فما كتب الجاحظ

1: الآيات الكونية دراسة عقدية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، إعداد: عبد المجيد بن محمد الوعلان إشراف: عبد الكريم بن محمد الحميدي، العام الجامعي: 1432 هـ / 1433 هـ، ص: 129.

2: آيات الله في الإنسان، محمد راتب النابلسي، ص:11. كتاب إلكتروني على موقع مكتبة نور.

3: التفسير العلمي للقرآن، جذوره، الموقف منه، عادل علي الشدي، مقال إلكتروني، انظر موقع مداد:http://midad.com/article/220052 /

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أبو عثمان (ت:255هـ) كتابه: "نظم القرآن" إلا تدليلا على هاته المسألة، وردا على القائلين بمقولة الصَّرفة، أي أن الله تعالى صرف العرب عن الإتيان بمثل القرآن في بلاغته وفصاحته.

كذلك فعل الخطابي أبو سليمان (ت:388هـ) في مصنفه "بيان إعجاز القرآن"، الذي كتبه لتقرير أن القرآن الكريم معجز في بلاغته وفصاحته وفي قدرته على توصيل المعاني والأخبار والحقائق الحاضرة والبائدة والقادمة، ورفعا للتحدي في هذا المضمار بذلك الشكل، إذ يقول:" فتَفَهَّم الآن واعلم، أن القرآن إنما صار معجزًا لأَنه جاءَ بأَفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له فى صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته من تحليل وتحريم وحضر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها، واضعًا كل شيءٍ منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه، مودعًا أخبار القرون الماضية وما نزل من مَثُلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئًا عن الكوائن المستقبلة في الأَعصار الباقية من الزمان، جامعًا في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به، ونهى عنه.

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجز عنه قُوى البشر ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته فى شكله".[1]

ونفس الأمر والحكم ينسحب على الباقلاني أبو بكر (ت:403هـ) في مصنَّفه "إعجاز القرآن" الذي حصر إعجاز القرآن في ثلاث: الإخبار عن الغيوب، قصص الأولين وأخبار الماضين، بداعة النظم.

والجرجاني أبو بكر(ت:471هـ) الذي جعل غاية الإعجاز وكماله في سقفه هو إعجاز النَّظم، في كتابه"دلائل الإعجاز"، إذ يقول:" فإذا بطل أن يكون الوصف الذي أعجزهم من القرآن في شيء ممّا عدّدناه، لم يبق إلّا أن يكون في النّظم".[2]

قلتُ: وانظر تعدد أوجهه عند المعاصرين بعد ظهور العلوم واتساع الآفاق المعرفية، وظهور علم الاجتماع والاقتصاد والسياسة وغيرها، حيث جعل الإمام الزُّرقاني (1948م) –مثلا– وجوه إعجازه في 14 وجها، أتى على شرحها واحدة تلو الآخرى، فلتنظر في بابها.[3]

ثانيا: يتقرر أن القول بجواز التفسير العلمي، والقول بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم وآياته، ليس تخصيصا وحصرا لدور القرآن الكريم، بل هو المتفرع عن الأصل الهدائي التدبري له، وأن الأصل في القرآن الكريم هو الهداية والتدبر.

يوضح هذا المعنى بأكثر دقة الإمام الزُّرقاني إذ يقول:" إن القرآن الكريم **كتاب هداية وإعجاز**، من أجل هذين المطمحين نزل وفيهما تحدَّث وعليهما دلَّ، فكل علم يتصل بالقرآن من ناحية قرآنيته أو يتصل به من ناحية هدايته أو إعجازه فذلك من علوم القرآن، وهذا ظاهر في العلوم الدينية والعربية.

1: بيان إعجاز القرآن، حمد بن محمد الخطابي، تح: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط:03، ت: 1976م، ص: 28.
2: دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1،ت: 2001م، ص: 251.
3: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، ج:02، ص:332- 405.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما العلوم الكونية، وأما المعارف والصنائع وما جدَّ أو يَجِدُّ في العالم من فنون ومعارف كعلم الهندسة والحساب وعلم الهيئة والفلك وعلم الاقتصاد والاجتماع وعلم الطبيعة والكيمياء وعلم الحيوان والنبات، فإن شيئا من ذلك لا يجمل عدُّه من علوم القرآن، لأن القرآن لم ينزل ليدلل على نظرية من نظريات الهندسة مثلا ولا ليقرر قانونا من قوانينها، وكذلك علم الهندسة لم يوضع ليخدم القرآن في شرح آياته أو بيان أسراره.

وهكذا القول في سائر العلوم الكونية والصنائع العالمية، وإن كان القرآن قد دعا المسلمين إلى تعلّمها وحذقها والتمهُّر فيها خصوصا عند الحاجة إليها. وإنما قلنا: إنه لا يجمل اعتبار علوم الكون وصنائعه من علوم القرآن مع أن القرآن يدعو إلى تعلمها، **لأن هناك فرقا كبيرا بين الشيء يحث القرآن على تعلُّمه في عموماته أو خصوصاته، وبين العلم يدل القرآن على مسائله أو يرشد إلى أحكامه أو يكون ذلك العلم خادما للقرآن بمسائله أو أحكامه أو مفرداته**، فالأول ظاهر أنه لا يُعتبر من علوم القرآن بخلاف الثاني، وهو ما نريد أن نرشدك إليه وأن تحرص أنت بدورك عليه".[1]

ثالثا: أسس وضوابط التفسير العلمي:

بعد النظر والبحث في كلام أهل التخصص في هذا الاتجاه، رأيت أن أضع مجموعة من الضوابط والأسس لمن رام الحديث عن التفسير العلمي، أو لبيان التفسير المحمود فيه من المذموم، خاصة وأن الأصوات القائلة بعدم جوازه أصالة، لازالت تصدح بها، مع ممارسات خاطئة ومشوّهة للقرآن الكريم، تلك التي غلت في الغوص في القضايا العلمية والتفسيرات التي أخرجت الآيات القرآنية خصوصا والقرآن الكريم عموما عن هدفه الهدائي والإصلاحي والتزكوي، وإنها لممارسات انزلقت في حمى الغلو، إذ لم تجد أسسا تنضبط بها، لذا فإن أهم ضوابط وأسس التفسير العلمي للقرآن الكريم هي:

1: استحضار المفسّر لقداسة القرآن الكريم أثناء العملية التفسيرية، وأنه كتاب هداية وتزكية ابتداء وانتهاء.

2: إخضاع العلوم التجريبية لسلطة النص المقدَّس، فما وافق قطعي الدلالة والثبوت فيه، كان زائدا في بيان عظمة القرآن الكريم وأنه مصداقٌ لألوهية نصه ونبوة رسوله.

3: التأصيل إلى أن الحقائق العلمية الثابتة لا تتعارض والنص القرآني المقدَّس، وأن العلم والقرآن تحكمهما علاقة التداخل والتكامل والتطابق، **وأن العلم التجريبي خادمٌ للنص القرآني وليس حاكمًا عليه.**

4: أن يجعل المفسّر مهنته مقتصرة على بذل محاولات تأويلية تتجاوز المدلول الظاهر للآيات القرآنية، بغية القول بتطابق مدلولاتها مع معطيات العلم الحديث ومخرجاته. وكشف الصلة بين تلك المخرجات العلمية والآيات القرآنية.

5: ليس كل حادث علمي نازل، بملزم للمفسّر البحث فيه وفي قضاياه داخل النص القرآني، إذ أصل العملية التفسير العلمية جاءت للاستئناس وزيادة الإيمان بعظمته، لا جعله ميدانا لكل شاردة وواردة في الميادين العلمية.

6: ليس لزوما أن تحتمل الآية القرآنية وجها تفسيريا علميا، إذ اقتصارها على بعض المعاني الهدائية والتزكوية فقط، محتمل.

1: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، ج:01، ص: 24.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رابعا: التفسير العلمي والإعجاز وموقف أعلام التفسير المعاصرين:

اهتمت الساحة المعرفية والدراسات القرآنية التفسيرية قيدما وحديثا بحكم هذا الاتجاه، قصدا به التفسير العلمي، أو الإعجاز، وربما في تصانيفهم المصنفة تدليل على حكمهم المقرر، فهذا محمد عبد المنعم الجمَّال كتب مصنفه "التفسير الفريد للقرآن المجيد" وهو عمل معاصر جدا سلك صاحبه هذا الاتجاه العلمي والذي دندن فيه حول الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، والشيخ طنطاوي جوهري (ت: 1940م) ألَّف تفسيره "الجواهر في تفسير القرآن الكريم"، ويمكن اعتباره من أظهر ما صنِّف في هذا الباب، حيث أوغل في هذا الاتجاه، فخرج تفسيره مخرج الابتكارات الحديثة والمعاصرة، ومن قبله الشيخ محمود شكري الآلوسي أبو المعالي(ت:1924م) في تفسيره "ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان"، ومن قبله الشيخ محمّد بن أحمد الإسكندراني الطبيب، الذي صنَّف "كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلّق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية" (ت:13هـ)، وعقَّب عليه كثير من الأعلام ردا لما حواه من بعض التطويعات والإكراهات للنصوص القرآنية الكريمة، المخرجة عن أنواره وأسطعه، ومن قبلهم جميعا الإمام الرازي (ت:606هـ) بتفسيره" مفاتيح الغيب" ولست بحائد عن الحقيقة أن أقرر أن أوّل من تحدَّث عن هذا الاتجاه، ومارسه بتطبيقاته وأسسه، هو الإمام فخر الدين الرازي (ت:606هـ)، والذي عارضه وخالفه ثلة من الأعلام الذين رأوا في بصماته وإدراجاته للقضايا العلمية الطبيعية والكونية "تنطعا وتكلفا" لم يسلم فيه صاحبه من انزلاقات كبيرة وخطيرة، وصلت عند بعضهم حد تكفيره، وهذا الإمام أبو حيان في عمليته التقييمة لهذا التفسير، يذكر كثيرا من "المثالب"، ويجعل منها "ما يورده من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحداثة في الملة" كما شنع عليه الإمام الشاطبي وغيره كثير.

وفي التراث التفسيري الجزائري، نجد بصمة راقية لإمام المصلحين الشيخ عبد الحميد بن باديس، والذي قام بالعملية التفسيرية العلمية في تفسيره "مجالس التذكير"، منوها على الإعجاز العلمي مازجا بين اللونين رابطا الشق الهدائي التدبري والعلمي الإعجازي، إذ يقول في تفسيره لقوله تعالى:{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا} [الإسراء: 12]: "لله تعالى في سور القرآن، وعالم الأكوان، آيات بينات دالة على وجوده، وقدرته، وإرادته، وعلمه، وحكمته. ونعم سابغات موجبة لحمده وشكره وعبادته. ولما ذكر تعالى آيته ونعمته بالقرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، ذكر آيته ونعمته بالليل والنهار المتعاقبين على هذا الكون الأعظم. فقال تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ .... }. و{الآية}: هي العلامة الدالة. وكان الليل والنهار "آيتين" بتعاقبهما مقدرين بأوقات متفاوتة بالزيادة والنقص في الطول والقصر، على نظام محكم وترتيب بديع، بحسب الفصول الشتوية والصيفية، وبحسب الأمكنة ومناطق الأرض: المناطق الاستوائية، والقطبية الشمالية، والجنوبية، وما بينهما. حتى يكونا في القطبين ليلة ويوماً في السنة، ليلة فيها ستة أشهر هي شتاء القطبين، ويوم فيه ستة أشهر هو صيفهم. وقد تقرر في علم الهيئة أن القمر جرم مظلم يأتيه نوره من الشمس. واتفق علماء الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أن جرم القمر- كالأرض- كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحمو والحرارة ثم برد، فكانت إضاءته في أزمان حموه وزالت لما برد. **لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية،**

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ذلك الكتاب الذي جعله الله حجة لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وبرهاناً لدينه على البشر مهما ترقوا في العلم، وتقدموا في العرفان!!

فإن ظلام جرم القمر لم يكن معروفاً أيام نزول الآية عند الأمم إلاّ أفراداً قليلين من علماء الفلك. وإن حمو جرمه أولاً، وزواله بالبرودة ثانياً، ما عرف إلاّ في هذا العهد الأخير. والذي تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ نحو أربعة عشر قرناً نبي أمي، من أمة أمية، كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم؛ فلم يكن ليعلم هذا إلاّ بوحي من الله الذي خلق الخلائق وعلم حقائقها!!

كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الْأُمِّيِّ مُعْجِزَةً ... فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ فِي الْيُتْمِ".[1]

قلتُ: فنحن نرى طريقة مزج هادفة للتفسير العلمي والإعجاز العلمي، مع صبغه بالمقصد الأسمى والغاية العظمى التي هي البصمة الهدائية للقرآن الكريم، فحديثه عن المناطق الاستوائية والقطبية الشمالية والجنوبية، ثم بيان للشتاء والصيف في القطبين بأشهره، مع ربطه بعلم الهيئة والفلك، مع ما تقرر من مكتشفات علمية معاصرة حول الأرض وطريقة تكوينها وغيره من القضايا العلمية والإعجازية، كان مسوقا لعبارة تقطر خشوعا وتدبرا وانكسارا أمام عظمة الله تعالى وقدرته، وبيان لما استطاع كتابه المقدس من احتوائه وبيانه والتدليل عليه إن أحسن المسلم قراءته وفهمه وأجاد فن استنطاقه.

تجدر الإشارة إلى أن التراث التفسيري القديم قد ظهرت فيه ملامح هذا الاتجاه سواء في كتب متنوعة المضامين أو في تفاسيرهم، غير أنها لم تكن بالنضوج الذي صار عليه اليوم، ولم يكن ضمن إفراد مستقل له، بل كان يُذكر عرضا، وتدليلا، في قضية الإعجاز القرآني عموما. فغالب تلك التصانيف إما ذكرته ذكرا عابرا دون تركيز عليه، أو مارسه أصحابها دون فهم منهم لكونه اتجاها قائما بذاته، يصلح أن يُعتد به ويصار في فلكه أثناء العملية التفسيرية للآيات القرآنية الكريمة.

خاتـــمـــة:

في خاتمة المقال يظهر جليا أن كل إعجاز علمي مستمدٌّ متعرَّفٌ عليه من خلال التفسير العلمي، وأن كل تفسير علمي ليس بالضرورة هو إعجاز علمي، وأن الإعجاز العلمي القصد منه والغاية هو البيان والاحتجاج بمخرجاته ونتائجه على غير المسلمين، تدليلا على صدق القرآن ونبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وأن استخدام مكتشفات العلم التجريبي في بيان معاني الآيات القرآنية هو التفسير العلمي، وأن استخدام هذا التفسير العلمي في إثبات صدق النبوة وكون القرآن كلام الله تعالى لذكره ما لا يمكن للبشر أن يعرفوه في ذلك الوقت هو الإعجاز العلمي.

ثم محاولة لوضع مجموعة من الضوابط للتفسير العلمي والإعجاز العلمي، خاصة مع فشو هذا الاتجاه، وظهور محاولات "تنطعية" أدت إلى خروجها عن الشق الهدائي التدبري، بعد محاولتها تطويع بعض الآيات وتحميلها ما لا يمكن تحميله، بطريقة أساءت لهذا الاتجاه. كما يتقرر أن القول بجواز التفسير العلمي، والقول بالإعجاز العلمي للقرآن الكريم وآياته، ليس تخصيصا وحصرا لدور القرآن الكريم، بل هو المتفرع عن الأصل الهدائي التدبري له، وأن الأصل في القرآن الكريم هو الهداية والتدبر.

1: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد بن باديس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:01، ت: 1995م، ج:01، ص: 47.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

توصي الدراسة بضرورة الاهتمام بالدراسات الراسمة للفوارق والرسوم والحدود التي بين الفنون المتقاربة خاصة في الدراسات القرآنية التفسيرية، ومحاولة بيان المساحات العلمية التي يغطيها كل فن له فروع وأفنان، كما توصي بضرورة التصدي لبعض المحاولات التي لا ينقصها النية الحسنة بقدر ما ينقصها التوجيه وضرورة الانضباط بالضوابط التي ترسم من أهل الاخصص، في محاولة لبقاء قدسية القرآن في النفوس، وبقائه حجة على البشرية جمعاء.

قائمة المصادر والمراجع:

1. اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم، محمد إبراهيم شريف، دار السلام، القاهرة، ط:01، ت: 2008م.
2. الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في القرن الثالث الهجري، عبد المجيد محمود عبد المجيد، مكتبة الخانجي، مصر، دط، ت: 1979م.
3. اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد بن عبد الرحمن الرومي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:03، ت:1997م.
4. إتقان البرهان في علوم القرآن، فضل حسن عباس، دار الفرقان، الأردن، ط: 01، ت: 1997م.
5. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، القاهرة، ط:01، ت: 1976م.
6. بيان إعجاز القرآن، حمد بن محمد الخطابي، تح: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط:03، ت: 1976م.
7. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، دط، ت: 1984م.
8. تعريف الدارسين بمناهج المفسِّرين، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط:03، ت: 2008م.
9. التفسير والمفسِّرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط:07،ت:2000م.
10. التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، محمد بن رزق بن عبد الناصر بن طرهوني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، السعودية، ط:01، ت: 1426 هـ.
11. التيسير في أصول واتجاهات التفسير، عماد عبد السميع حسين، دار الإيمان، القاهرة، دط، ت: 2006م.
12. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تح: أحمد البردوني، إبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، د:02، ت: 1964م.
13. الجمع بين القراءتين، الوحي والكون، طه جابر العواني، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، دط، ت: 2013م.
14. دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1،ت: 2001م.
15. شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، السعودية،ط:02، ت: 1428هـ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

16. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، ابن منظور الإفريقى، دار صادر، بيروت، ط: 03، 1414هـ.
17. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد بن باديس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:01، ت: 1995م.
18. محاضرات في علوم القرآن، غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان، ط:01، ت: 2003م
19. المدارس النحوية أسطورة وواقع، إبراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، ط:01، ت: 1987م.
20. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني ،تح: عبد السلام هارون،دار الفكر، بيروت، دط، ت: 1979م.
21. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية،إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، القاهرة، ط:04، ت: 2004م.
22. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابى الحلبي وشركائه، القاهرة، ط:03، دت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com